

معركة الجزائر و جرائم الاستعمار الفرنسي في الجزائر

الأستاذة رانية مخلوف

قسم التاريخ /جامعة الجزائر 2

مقدمة

لعله من الأمور الصعبة التي تعترض الباحث في تاريخ الجزائر خلال فترة الاستعمار الفرنسي هو تحديد فضاة سياسة الاستعمار الفرنسي بالجزائر، ولا سيما تلك الجرائم التي ارتكبتها قوات الجيش الفرنسي أثناء ثورة التحرير، فلو أردنا أن نصف لتلك السياسة لما وجدنا غير صفات الهمجية، والبربرية، وهي صفات أقل حدة مقارنة بما قام به زبانية الاستعمار الفرنسي بالجزائر، وهذا باعتراف الفرنسيين أنفسهم، فقد وجدنا من بينهم من أدان سياسة بلاده في الجزائر، وعبروا عن ذلك بأنه أعادهم إلى الوحشية وعصور التأخر والبربرية، وأن الفرنسيين بارتكابهم لتلك الجرائم أكدوا على أنهم ذوو ضمائر فاسدة.

وقد انكشف زيف تلك الشعارات منذ أن وطأت أرجل جحافل الجيش الفرنسي بالجزائر، حيث تجلت لا إنسانية هذا الجيش وتعامل مع الشعب الجزائري بدونية واحتقار قل نظيرهما في السياسات الاستعمارية الأخرى، وقد تجلت سياسة البطش والتقتيل خاصة بعد اندلاع الثورة التحريرية في الفاتح من شهر نوفمبر 1954، وسنحاول من خلال هذا البحث المتواضع أن نكشف عن جانب صغير من فضاة الاستعمار الفرنسي بالجزائر.

1- سياسة التهيب والقمع :

لقد كانت مدينة الجزائر من المناطق التي شهدت العمليات العسكرية الأولى ليلة أول نوفمبر 1954، من أجل القضاء على النشاط الفدائي بمدينة الجزائر عملت قوات الجيش الفرنسي كل ما في وسعها للقضاء على العناصر الفدائية وإبقاء مدينة الجزائر بعيدة عن النشاط الثوري الذي كانت تعيشه بقية المناطق الأخرى¹، وباعتبار أن طبيعة المواجهة بمدينة الجزائر تختلف عن غيرها بالمناطق الجبلية، فإن سياسة الاستعمار الفرنسي من أجل القضاء

على النشاط الفدائي أخذت صبغة مميزة، ففي مدينة الجزائر لا يمكن الحديث عن قتال النبال التي كانت تبيد المداشر في البوادي وتحطم القرى وتحرق الغابات، إن مثل هذه الأمور كانت وسائل غير مجدية في معركة تدار رحاها داخل مدينة نصف سكانها من الأوربيين²، الذين كانوا يمثلون القوة الثانية للاستعمار، وفضلا عن ذلك فإن الحرب داخل المدن تختلف عن الحرب في المناطق الجبلية. كل ذلك كان يشكل إحدى العقبات أمام السلطات الفرنسية للقضاء على النشاط الفدائي بالمدينة، الأمر الذي جعلها تتبع إستراتيجية شاملة جمعت فيها الوسائل السياسية والعسكرية، والإعلامية والحرب البسيكولوجية.

بعد العمليات الفدائية الأولى التي حدثت ليلة أول نوفمبر 1954 بمدينة الجزائر، تحركت السلطات الفرنسية، وشرعت في عمليات البحث والتمشيط قصد القبض على العناصر الفدائية، فشنت حملات اعتقال عشوائية ضد كل المشتبه بهم ولاسيما عناصر حركة الانتصار للحريات الديمقراطية³، فتمكنت من إلقاء القبض على بعض العناصر الفدائية وسلطت عليهم أشد أنواع التعذيب الأمر الذي جعلها تتمكن من معرفة تركيب التنظيم والتعرف على عناصره⁴، وقد استمرت السلطات الفرنسية في تشديد رقابتها وتكثيف قواتها بالمدينة،
1955.⁵

لكن الهدوء الذي عاشته مدينة الجزائر لم يدم طويلا، بحيث تحركت عناصر فدائية جديدة وبدأت تعمل على تنظيم نفسها وشرعت في القيام ببعض العمليات الفائية، ومع عودة النشاط الفدائي بالمدينة، قامت السلطات الفرنسية بإجراءات وقائية، حالة الطوارئ في 16 أبريل 1955⁶، وبذلك أصبحت القوات الفرنسية بالمدينة تعيش حالة حرب⁷.

وفي غياب معلومات عن تركيب وتنظيم العمل الفدائي، فقد بدا من الواضح بأن عمل القوات الفرنسية يكون صعبا للغاية، فلجأت هذه الأخيرة إلى الاعتقال الجماعي وانتهاج سياسة الاستنطاق التي كان لها مفهوما واحدا وهو التعذيب⁸. وأمام تنامي خطر الثورة واتساع دائرتها، ومع الضغط الذي كان يمارسه المعمرين على السلطات الفرنسية، قامت هذه الأخيرة بإصدار إجراءات " دراكونية"، بحيث أصدرت قانون المسؤولية الجماعية⁹، هذه الأخيرة التي كانت تعني في عرف السلطات الاستعمارية كانت تعني تحميل كل الشعب الجزائري مسؤولية تفجير الثورة الجزائرية، فكان هذا برهانا قاطعا على فشل القوات الفرنسية وعجزها عن

مواجهتها زحف الثورة الجزائرية وقد أكد الجنرال "سوستيل" على أن مثل هذه السياسة تكون ذات فعالية مع العرب الذين ينحنون أمام القوة¹⁰.

لقد كانت أحسن الطرق وأسهلها أمام السلطات الفرنسية هو القيام بحملات التمشيط والاعتقالات الجماعية، ففي النصف الأول من سنة 1956، قامت السلطات الفرنسية بتشديد رقابتها وإحكام سيطرتها على مدينة الجزائر، فأعلنت عن حالة الحصار في المدينة يوم 17 مارس 1956، وبعد يومين من ذلك الإعلان مددت مدة الحصار لتصبح من الساعة الثامنة مساء إلى الخامسة صباحاً¹¹. وأمام تطور النشاط الفدائي بالمدينة لجأت القوات الفرنسية إلى تكييف حملات التمشيط ففي يوم 27 ماي 1956، قامت القوات الفرنسية بعمليات تمشيط واسعة في حي القصبة قادها حوالي خمسة آلاف جندي يساعدهم حوالي ألف وخمسمائة شرطي، وتم على إثرها اقتحام المنازل وتفتيشها، وقد تمكنت القوات الفرنسية من حجز بعض الأسلحة التي كانت بحوزة عناصر جبهة التحرير الوطني كما تم اعتقال حوالي خمسة عشر شخصاً أخذوا إلى المعتقلات ومنها الملعب البلدي¹².

لم تتمكن السلطات الفرنسية من تخطيط فصائل التنظيم الثوري بالمدينة واتضح أن قوات الاستعمار الفرنسي هذه غير كافية للقضاء على النشاط الفدائي بمدينة الجزائر، وعجزت أمام نشاط العناصر الفدائية التي استمرت في عملياتها الفدائية، الأمر الذي جعل السلطات الفرنسية تلجأ بعد ذلك إلى عزل حي لقصبة وإحاطته بالأسلاك الشائكة باعتباره القاعدة الخلفية للنشاط الفدائي بالمدينة¹³، وبعد ذلك توسع حصار أغلب الأحياء العربية بالعاصمة¹⁴. لكن كل ذلك قد جلب للقوات الفرنسية المتاعب وجعلها في حالة مراقبة دائمة ومع ذلك فإنها لم تحقق النتائج المرجوة رغم قوة الوسائل التي كانت تملكها القوات الفرنسية، بحيث كان هدف السلطات الفرنسية من وراء حملات التمشيط المتكررة - هو القبض على قيادة التنظيم - الذي كان يفلت دائما من قبضتها، فلا قواتها العسكرية الضخمة استطاعت أن تحد من حركات العناصر الفدائية، واستمرت العمليات الفدائية وبقوة أكثر، بحيث شهدت المدينة تصعيدا خطيرا بعد إعدام الشهيدين "أحمد زبانة" و"عبد القادر فراج" يوم 19 جوان 1956، وتحولت أيام وليالي المدينة إلى رعب نتيجة العمليات الفدائية¹⁵.

وأمام هذا التصعيد فقد عم الخوف المعمرين، الأمر الذي دفعهم إلى الإقدام على جريمة حادثة شارع التبس بالقصبة يوم 10 أوت 1956، والذي أدت إلى مقتل حوالي 73 جزائري¹⁶، وكان لهذه الجريمة تأثيرا كبيرا على معنويات الجزائريين، وفي نفس الوقت كشفت عن التواطؤ الذي كان بين القوات الفرنسية والمتطرفين الأوربيين الذين ارتكبوا عدة جرائم وقاموا بعدة اعتداءات ضد الشعب الجزائري، وأصبح العمل مشتركا بين رجال القوات الفرنسية وعصابات المعمرين المتطرفين¹⁷. ورغم ذلك فإن العمليات الفدائية لم تتوقف ففي 29 ديسمبر 1956 تم تنفيذ عدة عمليات فدائية كانت أخطرها العملية التي نفذت في 29 ديسمبر 1956 وأدت إلى مقتل "أميلي فروجي"، فكان ذلك بالنسبة للقوات الفرنسية تأكيدا على قوة النشاط الثوري بالعاصمة، فأصبحت تعيش حالة الرعب والخوف من ضياع مدينة الجزائر بعد أن أضحت تحت سيطرة جبهة التحرير الوطني⁽¹⁸⁾ فاضطرت السلطات الفرنسية إلى تدعيم قواتها العسكرية بالمدينة وتطوير إستراتيجيتها للقضاء على النشاط الفدائي.

2 - تعزيزات عسكرية جديدة.

يظهر مما سبق ذكره أن السلطات الفرنسية حتى نهاية سنة 1956 كانت قد فشلت في كل اطر التي اتبعتها من أجل القضاء على النشاط الفدائي، وعجزت عن مواجهة العمليات الفدائية التي كانت تضرب أحياء المدينة باستمرار، ولم تنفعها عمليات التمشيط المتوالية ولا حتى حملات الاعتقال الجماعي، وإضافة إلى ذلك فإن جبهة التحرير أعلنت عن إضراب شامل هذا من خلاله الشهيد العربي بن مهيدي السلطات الفرنسية بديان بيان فو بمدينة الجزائر⁽¹⁹⁾. لقد كان الإعلان عن الإضراب كالصاعقة على السلطات الفرنسية، الأمر الذي جعلها تتخذ عدة إجراءات كإقالة والي مدينة الجزائر "كولافري (Collaveri)" في شهر ديسمبر 1956 وخلفه "سارج باري (Serge Baret)"⁽²⁰⁾، وبعد ذلك قام "لاكوست" في 7 جانفي 1957 باستدعاء قادة عسكريين جدد، كان على رأسهم أبرز الجنرالات الفرنسيين المتدربين على حرب العصابات وذوي الخبرات العالية في هذا المجال، من بينهم قائد الفرقة العسكرية العاشرة للمضليين العائدة من حرب السويس الجنرال "سلان رؤول (Salan Raoul)"⁽²¹⁾، وحتى تتمكن قوات الجيش الفرنسي من محو عار الهزيمة التي منيت بها هناك فقد قرر

"سالان" تطهير مدينة الجزائر، فاختار أشهر القادة العسكريين منهم الجنرال "ماسي (Massu)" الذي كلفه بمهمة خوض معركة الجزائر والقضاء النهائي على من اسماهم بالصعاليك "الذين يصنعون القنابل لقتل النساء والأطفال"⁽²²⁾، وقد أظهر الجنرال (ماسي Massu) شجاعة كبيرة لتحقيق ما عجز عنه من سبقوه فطلب بتعزيز قواته الى 46 ألف جندي بعد أن خول له كل السلطات ، بحيث وضعت تحت تصرفه السلطات المدينة والبوليسية إلى جانب القوات العسكرية⁽²³⁾.

3- فشل عملية الشامبان (Champagne):

هكذا دعت القوات الفرنسية إحدى أكبر معاركها التي خاضتها في الجزائر " بعملية الخمور"⁽²⁴⁾ ، ولسنا ندري هل تلك التسمية هي استخفاف بالمعركة بحيث يمكن لعناصر الجيش الفرنسي القيام بها وهم في حالة سكر؟ أم أنها تعبير حقيقي عن حالة الخوف والذعر التي أصبح عليها الجيش الفرنسي الأمر الذي جعل عناصره تمشي خبط عشواء وترتكب أكبر الجرائم الإنسانية ضد الشعب الجزائري، وكأنها فقد صوابها.

ومهما يكن فإن العملية بدأت في 8 جانفي 1957، يقودها الجنرال "ماسي (Massu)" يساعده في ذلك أكبر القادة العسكريين العائدين من حرب الفيتنام وأصحاب تجربة كبيرة في حرب العصابات، نذكر منهم، "فوسي فوانسوا" (Fossey Francois)، "بيجار" (Bijard)، "جون بير" (Jean Piere)، "غودار" (Godard)، "ترينكي" (Roger Trinquier)⁽²⁵⁾، وكلهم كانوا محل احترام لدى وحدات الجيش الفرنسي ومحبوبين من طرف المعمرين وإلى جانب هذه القوات العسكرية نجد فرق الدرك المقدرة بحوالي عشرة فرق، أما القوات البحرية والقوات الجوية فإنها لم تتأخر عن المشاركة في هذه العملية، بحيث قدمت المساعدات الكاملة لقوات الجيش الفرنسي⁽²⁶⁾.

لقد بدأت هذه العملية بسرعة وأخذت الوحدات العسكرية أماكنها عبر مختلف أنحاء المدينة والمناطق القريبة منها وقبل أن يبدأ الإضراب بـ 20 يوما أصبحت منطقة الجزائر الكبرى ابتداء من "عين طاية" شرقا إلى "قيوفيل" (عين البنيان حاليا) غربا وكأنها وقعت تحت نسيج العنكبوت، أما حي القصبة فقد أضحي محاصرا بآلاف الجنود، ورغم أن المبرر بالنسبة للسلطات الاستعمارية هو إفشال الإضراب وتكسيهه، إلا أن الهدف الأول كان واضحا

من وراء ذلك وهو القضاء على العناصر الفدائية وتدمير التنظيم الثوري بالمدينة⁽²⁷⁾، وحتى يكون لذلك العمل شرعية ويكون محل رضا من قبل الفرنسيين ولا يجد معارضة دولية، حاول الجنرال "ماسي" إظهار الإضراب بأنه عصيان ثوري لتحريك مشاعر المعمرين ويشعرهم بانعدام الأمن في كل الجزائر⁽²⁸⁾.

وقد بدأت عملية التمشيط يوم 8 جانفي 1957 أي بحوالي 20 يوما قبل بداية الإضراب وهذا ما يؤكد لنا أن العملية كانت أكثر من هدف تحطيم الإضراب وإفشاله، وكانت البداية محاصرة حي القصبة بحوالي 10 آلاف مضلي، الذين قاموا بعمليات تفتيش للمنازل وأوقفوا كل مشتبه فيه⁽²⁹⁾، وتم في هذه العملية الأولى إيقاف حوالي 25000 شخص منهم حوالي 1500 تم إدانتهم وأحيلوا إلى مراكز الاعتقال⁽³⁰⁾، ورغم ذلك إلا أن قوات الجيش الفرنسي فشلت في مهامها، وتأكيدا على ذلك قام التنظيم الثوري بالعاصمة بتنفيذ في 26 جانفي 1957 عدة عمليات فدائية أدت إلى مقتل حوالي 5 خمسة معمرين وجرح حوالي أربعين منهم ، وقد أثبتت والتحقيقات الأولية أن هذه العمليات كانت من تنفيذ فتيات⁽³¹⁾.

لقد فشلت عملية الخمور ولم تحقق النتائج المرجوة وصفتها قيادة الجيش الفرنسي بالليوننة، حيث أصدرت في هذا الشأن بيانات في شهر جانفي 1957 وضحت فيها إلى أن لا مبدأ "لاعقيدة ولا أخلاق في الحرب"، وأن المهم هو النتيجة، وطالبت أن يشارك الجميع في عملية البحث عن الفدائيين، وبحسب قيادة الجيش الفرنسي فإن العملية التي يخوضها الجيش الفرنسي في مدينة الجزائر لا تقل خطورة من العمليات التي يخوضها الجيش الفرنسي في منطقة جبال النمامشة، أو منطق أخرى على⁽³²⁾، ويفهم من هذا هو ضرورة تصعيد العمل من أجل وضع حد للتنظيم الثوري لجهة التحرير بالعاصمة وذلك بإلقاء القبض على قادته وإتباع إستراتيجية فعالة تنسق فيها الأعمال بين مختلف المصالح والوحدات العسكرية.

4 - فشل سياسة الحصار والمراقبة:

بعد فشل القوات الفرنسية في سياسة التمشيط والاعتقال الجماعي وكذا المواجهة العسكرية ضد العناصر الفدائية لجأت إلى استعمال سياسة أخرى فاتبعت سياسة المراقبة المشددة والمستمرة على المدينة، فقامت بتوزيع عناصر وحداتها العسكرية عبر مختلف الأحياء، بحيث نجد عشرات الآلاف من المضليين موزعين فوق سطوح العمارات وأسطح المنازل، في زقاق

المدينة وعبر شوارعها وكانت الدوريات عسكرية تجوب شوارع المدينة بين اللحظة والأخرى، وفضلا عن ذلك فإن العاصمة ولا سيما الأحياء العربية منها أضحت محاطة بالأسلاك الشائكة المدعمة بأبراج المراقبة⁽³³⁾.

والى جانب ذلك قامت قوات الجيش الفرنسي باستحداث نظام المراقبة السرية، فقامت بزرع عيون لها عبر الأحياء وسطوح العمارات، فأصبحت على علم بكل داخل أو خارج، كما عملت السلطات الفرنسية على تطوير هذا التنظيم المدني لا سيما بعد فشلها في عمليات التمشيط التي لم تأت بالنتائج المرجوة، فمنذ شهر فيفري 1957، بدأت المراقبة الخفية المستمرة⁽³⁴⁾، ومن أجل السيطرة على المدينة قامت السلطات الفرنسية باستحداث الفرق الإدارية الحضرية (S AU) وهي تقابل الفرق الإدارية (S.A.S) بالأرياف والوادي، والهدف هو القيام بحرب نفسية ضد الشعب الجزائري وعزله عن الثورة، وذلك من خلال الإشراف الإداري الذي يسيره العسكريون، بحيث كان يدير هذه المؤسسات قسم المصالح الإخبارية بقيادة "روجي ترينكي" (Roger Trinquier)، وإلى جانب ذلك قامت السلطات الفرنسية باستحداث مصلحة "أجهزة الحماية الحضرية" (D.P.U)، وكان هدفها هو جمع المعلومات والكشف عن كل المشتبهين وذلك من خلال زرع عناصرها بين السكان⁽³⁵⁾.

وحتى تكون العملية منظمة فقد قسمت المدينة إلى أحياء وعلى رأس كل حي ينصب مسؤول يساعده شخصان أو ثلاثة، والحي بدوره يقسم إلى شوارع، وعلى كل شارع ينصب مسؤول ومساعدين له، وهكذا حتى نصل إلى قاعة التنظيم وهي العمارة أو المبنى، حيث ينصب عليها مسؤول أيضا يكون على اتصال مباشر بالسكان، وكل هؤلاء كانت تعينهم مصالح الشرطة، وبهذه الطريقة التي تشبه إلى حد كبير التنظيم الثوري الذي وضعت جبهة التحرير استطاعت القوات الفرنسية تسميم الوسط الشعبي، وقد كانت طريقة ناجحة إلى حد ما، فبعد شهرين من تكوين هذه المصلحة (D.P.U) تمكنت من استخدام آلاف الجزائريين الذين أصبحوا يعملون إلى جانب السلطات الفرنسية⁽³⁶⁾.

ويجب أن نذكر هنا أن هذا العمل كانت ترافقه حرب إعلامية دعائية من أجل التأثير على معنويات الشعب الجزائري، بحيث كانت أجهزة الإعلام الفرنسية تشن حربا نفسية خطيرة من خلال جرائدها المتعددة، وكذا الإذاعة والتلفزيون، والسينما، فقد كانت هذه السياسة

أكثر تأثيرا على سكان المدينة منها على سكان الأرياف⁽³⁷⁾ ، ورغم أن القوات الفرنسية اعتقدت في نهاية مارس 1957 أنها أنهت مهمة مدينة الجزائر، الأمر الذي جعلها تقوم بتسريح بعض وحداتها العسكرية نحو المناطق الجبلية، إلا أن النشاط الفدائي قد تواصل بعد أن أعيد تنظيم وحداته وكانت أحداث قنابل الكورنيش يوم 8 جوان 1957 دليلا قاطعا على أن التنظيم لا يزال قويا بالمدينة، الأمر الذي جعل القوات الفرنسية تقوم بإعادة وحداتها العسكرية إلى المدينة⁽³⁸⁾.

وبذلك فإن " معركة الجزائر " ستطلق من جديد والهدف الأول هو تدمير التنظيم الثوري وتشتيت عناصره الفدائية، ولا يتم ذلك إلا من خلال إلقاء القبض على قادة التنظيم، وأمام فشل عمليات التمشيط والاعتقال ثم فشل القوات الفرنسية في الحد من تحركات العناصر الفدائية لجأت القوات الفرنسية إلى عمل ذكي ومركز يتمثل في إعادة تجربة جانفي 1957 أي حملات تمشيط واعتقالات وفي نفس الوقت القيام بعمليات التعذيب دون تضييع للوقت، فقد كانت الطريقة حسب القوات الفرنسية أسهل الطرق ومؤكدة النجاح فأمم (هؤلاء الجبناء والقتلة) لا يوجد حل إلا هذا الحل، لا سيما وإن الرأي العام الفرنسي أصبح قلقا من عمل الجيش الفرنسي وعليه فإن كل شيء كان متوقف بمدى النتائج التي يحققها الجيش الفرنسي⁽³⁹⁾.

بهذا الكلام بدأ " بيجار " مع رفقائه المرحلة الثانية من معركة الجزائر التي خاضها آلاف المضليين الذين غزوا المدينة من جديد، حيث تم مراقبة أحياء هذه المدينة من كل الجهات ، وفوق اسطح المباني والعمارات كانت عناصر القوات الفرنسية قد أخذت أماكنها، أما الطائرات العمودية فقد كانت تحلق فوق المدينة وبهذه الطريقة كان العمل جاريا من أجل إلقاء القبض على قادة التنظيم⁽⁴⁰⁾ ، ومع ذلك فشلت القوات الفرنسية ولم تستطع أن تضع حدا للنشاط الفدائي ، لذلك فإن أفضل وسيلة بالنسبة للاستعمار في تفكيك التنظيم الثوري وتشتيت عناصره هو إتباع سياسة القمع والتعذيب.

5 - سياسة القمع والتعذيب:

إن الحديث عن تاريخ الاستعمار الفرنسي في الجزائر دون التطرق إلى جرائمه التي ارتكبتها ضد الشعب الجزائري والتي كانت تعبيرا صادقا عن حقيقة وجوده بالجزائر، يكون

حديثا مبتورا ولا معنى له، وقد يرى البعض أن هذا اتهاما وعملا بعيدا عن البحث العلمي لذلك فإننا نضطر إلى تقديم شهادات للفرنسيين أنفسهم لرفع كل لبس وبذلك لا نكون نحن المتهمين (بكسر الهاء) للاستعمار الفرنسي بل الفرنسيين أنفسهم هم المصرحين بحقيقة وجودهم بالجزائر، وعند ذلك لا يبقى أمنا تساؤل حول صدق الكلام حول مجازر الاستعمار الفرنسي بالجزائر أو كذبه، بقدر ما نجد أنفسنا مضطرين للعمل و البحث عن تلك الجرائم التي لا تزال مجهولة إلى حد الآن.

ففي هذا الإطار صرح "جون بول سارتر" إن ممارسة التعذيب هي إحدى مخازي الإنسانية، ووجود أناس يحترفون تعذيب أناس مثلهم... ليستخرجوا منهم إقرارا بجريمة هو أمر يفوق كل التصور⁽⁴¹⁾، ولهول الجرائم الاستعماري بالجزائر أعلن (فرونسوا مويك) الانقطاع عن كتابة إحدى الروايات، لأن فضاغة عالم الواقع تطرده عن مجال التأليف الخيالي... "وقد كان يعني هنا الجرائم الفرنسية المرتكبة بالجزائر، وقال بأن فرنسا ولا سيما بالجزائر قد ماتت... وإنها تموت باستمرار في كل لون من ألوان التعذيب التي يخضع لها الجزائريون⁽⁴²⁾، كما كتب أحد الضباط الفرنسيين يقول أنه أصبح مشمئزا من أي وقت مضى وأكد أن الألمان في أساليبهم كانوا غلمانا بجانب الجرائم الفرنسية بالجزائر⁽⁴³⁾، ولعل هذا الذي جعل "سيمون دي بوفوار" تصرح بأنه إذا كان لا يزال هناك فرنسيون يحسون بالشرف وبالطهارة الجندي وبعظمة فرنسا فإنهم لا يقرؤوا جرائم الاستعمار الفرنسي دون أن يحمروا خجلا⁽⁴⁴⁾، ومهما يكن فإن الشهادات المقدمة تؤكد أن هناك جرائم وهناك جلادون وهناك محاكم تفتيش كان الاستعمار الفرنسي قد أقامها بمدينة الجزائر وكانت هذه السياسة أحد أهم الوسائل التي اتبعتها السلطات الفرنسية لتفكيك التنظيم الثوري بالمدينة والقضاء على عناصره.

6 - محاكم التفتيش وزنانات الموت:

لقد تحولت مدينة الجزائر خلال الثورة الجزائرية عبارة عن محتشد كبير داخل هذا المحتشد هناك مراكز خاصة بالتعذيب والاستنطاق وإحصائنا للها غير ممكن لأن أغلبها عبارة عن أماكن خفية لا تدركها الأنظار⁽⁴⁵⁾، ومن بين هذه المراكز التي كانت معلومة نذكر: سجن بربروس (سركاجي)، سجن الحراش، مركز الفرز بين عكنون، مركز الفرز بيني مسوس وقد كان معتقلا كبيرا تعرض فيه الجزائريون لأشد التعذيب والأعمال الشاقة، ومركز بوزريعة الذي كان يتكون

من عمليات متخصصة ومعدة بوسائل خاصة للتعذيب⁽⁴⁶⁾، وإلى جانب ذلك هناك مراكز أخرى مثل (فيلا سيزيني) التي عرفت كثيرا من طرف الجزائريين أنها كانت رمز التعذيب فهذا المكان كان مكان إقامة القنصل الألماني سابقا (سيزيني) ولكن منذ اندلاع الثورة أصبح أحد مراكز التعذيب وشهدت أبشع المناظر⁽⁴⁷⁾ ، ثم نجد مركز البحرية الذي هو مركزا للقيادة البحرية ومركز للتعذيب في نفس الوقت، وثكنة الشانزي (Chanzy) ومدارس الأبيار، ديار السعادة والثكنات التابعة للإشارة، وفيلا اسو (Esso) المتواجدة في شارع غالييني، والملاعب البلدي حيث كان به حوض مائي يرمون فيه المعتقلين، وفيلا موجودة في رقم 51 شارع بري (Bru) كما كان هناك معتقل مخصص بالنساء بزرالدة⁽⁴⁸⁾ ، ومرآب حيدرة، وكذا مزرعة بويل ببئر الخادم حيث استشهد هناك علي بومنجل تحت التعذيب، ومركز قيادة الجنرال ماسي بالأبيار، ومزرعة الطرق الأربعة بحوش التروك (Altiroc) بالحراش مزرعة برنابس (Bernobes)، فيلا إكلير بتليملي، والبهو الكبير بمطحتين، فيلا غراس بالحمامات الرومانية⁽⁴⁹⁾ . إلى جانب هذه المراكز التي كانت معلومة فهناك بعض المراكز الخفية كمركز بئر طارية الذي ضل لوقت طويل مجهولا⁽⁵⁰⁾ ، هذه المراكز هي التي كانت تمد المعلومات إلى القوات العسكرية وذلك من خلال الاعترافات التي تفتك من المعذبين.

7 - التعذيب مؤسسة رسمية:

كثيرا ما ادعت السلطات الفرنسية أنها تجهل ما كان يجري بالجزائر من تعذيب وقمع الشعب الجزائري وعندما رفعت عدة شكاوي إلى السلطات الفرنسية، جراء تصاعد عمليات الاعتقال تظاهرات السلطات الفرنسية بتكوين لجنة حماية للبحث في تلك الشكاوي ولكن أي فائدة في لجنة حين تكثر الجرائم والمذابح، لقد كان الجميع يعرفها بما فيهم "لاكوست" وإذا كان هذا الأخير الذي كان حاكما عاما على الجزائر لا يستطيع أن ينهي تلك الأعمال غير الشرعية فهل من المفيد انتظار بضعة المستشارين القضاء على تلك الوحشية⁽⁵¹⁾. فقد كانت أعمال التعذيب أمم مرأى ومسمع السلطات الفرنسية والجيش الفرنسي هو الذي كان يمارس سياسة التعذيب بعد أن تحول إلى مؤسسة بوليسية وعلى رأس الجلادين على حد تعبير سارتر كان روبر لاكوست صاحب السلطات المطلقة بالجزائر فكل شيء كان يتم من خلاله وبواسطته، وآلاف الجزائريين والذين ماتوا من الألم وتحت آلة التعذيب إنما ماتوا بإرادة لاكوست وقد

اعترف بذلك نواب الحكومة الفرنسية آنذاك⁽⁵²⁾، بل إن السلطات الفرنسية كانت قد أوفدت بعثة إلى الجزائر تتكون من "بورجيس مونيري"، و"ماركس لوجين" حيث زارت هذه البعثة مراكز التعذيب وشجعت هذه السياسة بقوة⁽⁵³⁾، ولم تكتف السلطات الفرنسية بذلك بل قامت بتأسيس أجهزة مكلفة بالقمع تمارس عملها أساسا بالمدن وكل هذه الأجهزة كانت ذات طابع عسكري وإداري وكانت تابعة مباشرة للسلطة العسكرية⁽⁵⁴⁾، ومن بين هذه الأجهزة: أجهزة بوليس الدولة (P.E) بوليس المخابرات العامة (P.R.G)، البوليس القضائي (I.G) الفرقة العملية للوقاية (D.O.P)، جهاز الحماية الحضرية (D.P.U)، المكتب الثاني، المكتب الرابع، الحراسة الإقليمية (D. S.T) المصلحة الجوسسية المضادة للجوسسة (C.P.E.C.E) الفرق المدني (S.A.U) الجندرية

إن هذه الأجهزة المختصة في فنون التعذيب هي التي تمكنت من تفكيك التنظيم الثوري بالعاصمة خاصة بعد أن تحصلت على معلومات عن تركيب هذا التنظيم حيث أصبح التعذيب يرافق العمل العسكري في الوقت نفسه، بل أن أجهزة القمع وسياسة التعذيب كانت تسبق عمل العسكريين الذين كانوا دائما ينتظرون معلومات جديدة تأتيهم من مراكز التعذيب للحصول على أسماء جديدة وبهذه الطريقة كان أغلب العناصر الفدائية قد أُلقي عليهم القبض.⁽⁵⁴⁾

8 - شرف فرنسا يضيع في الجزائر:

إن الحديث عن طرق ووسائل التعذيب التي اتبعتها الاستعمار الفرنسي ضد الشعب الجزائري فاقت التصور البشري، حتى أن الألمان أصحاب الأسطورة النازية كانوا في أساليبهم غلمانا صغارا إلى جانب ما فعله الفرنسيون في الجزائر وهذا باعتراف الفرنسيين أنفسهم⁽⁵⁵⁾، ففي زنانات الموت ومحاكم التفتيش المنتشرة عبر أحياء مدينة الجزائر، هنا يمكنك أن ترى صورا قد تعود بك إلى مئات القرون فقد تعود ذاكرتك إلى صور قصص قرأتها من كتب تتحدث عن التعذيب عند الإغريق قبل الميلاد، أو التعذيب عند الرومانيين وهم يرمون الإنسان إلى الوحوش لتمزقه حيا وربما تعيد صور مأساة المسلمين في الأندلس، وصور التعذيب لآلاف المسلمين هناك، وما تراه في مراكز التعذيب الفرنسية بمدينة الجزائر أشبه بذلك فيمكنك أن

ترى معارضا متنوعة من الرؤوس البشرية المقطوعة وقد تجد في مكان آخر معارضا لأجساد بشرية معلقة أو مرمية بالسكاكين، مسمولة العيون مبتورة الأنياب⁽⁵⁶⁾.

أما وسائل التعذيب فكانت كثيرة ومتنوعة كالكهرباء، الحرق، التعذيب بالماء، إحداث جروح وجيوب في جسد المعتذب ثم يوضع الملح بها، قلع الأظافر، سمل العينين⁽⁵⁷⁾، كل هذا لم يكن كافيا فُلجأت السلطات الفرنسية إلى سهول متيجة كي تقضي على من لم يمت تحت التعذيب، كما كانت تقوم برمي الجثث في عرض البحر بعد أن تحزم إلى أحجار الأجر، لتنتقل بواسطة الطائرات العمودية وترمي بها في البحر، ولكن لا سعة سهول متيجة ولا عمق البحر كانا كافين لستر عار فرنسا فُلجأت هذه الأخيرة إلى جعل الجثث مع مواد البناء ثم البناء عليها⁽⁵⁸⁾.

لقد كانت نتيجة هذه السياسة التي اتبعتها السلطة الفرنسية مخزية جدا، فالجزائريون الذين تعرضوا للاستنطاق هنا له معنى واحد وهو التعذيب بلغ عددهم حوالي 180 ألف جزائري مستنطق⁽⁵⁹⁾، والآلاف من هؤلاء كانوا قد فقدوا إلى الأبد ذلك أن المعتذب نادرا ما كان ينجو من الموت الأمر الذي جعل عدد الجزائريين المفقودين خلال الأربع أشهر الأولى من سنة 1957 وصل عددهم إلى حوالي ستة آلاف مفقود⁽⁶⁰⁾، فقد أصبح من المؤكد الآن أن ما يعرف بمعركة الجزائر هو باختصار ما توصلت إليه السلطات الفرنسية نتيجة القمع والتعذيب وسالان نفسه يقر في مذكراته أن الانتصار يرجع الفضل فيه إلى ضبط الجيش الفرنسي الذين استقبلوا في مراكز أعمالهم مناضلي جبهة التحرير الوطني ثم قاموا بتعذيبهم لافتك معلومات سمحت لهم بتفكيك التنظيم بالمدينة ونحن الآن نتساءل بدورنا كما تساءل "جيل راي" (Jules Ray) في كتابه الذي "أتهم الجنرال ماسي" متسائلا إن كان الاستعمار الفرنسي قد عجز عن إيجاد حلول أخرى لتحقيق أهدافه دون صراخ ودون دموع ودون تعذيب الجزائريين⁽⁶¹⁾.

لقد أصبح من المؤكد أن السلطات الفرنسية قد فشلت عسكريا في مواجهة النشاط الفدائي بمدينة الجزائر الأمر الذي دفعها إلى ارتكاب أكبر الجرائم الإنسانية ضد الجزائريين، وذلك من خلال سياسة التعذيب، ولكن هذه السياسة لم تمكنها من تحقيق الانتصار النهائي بالمدينة، بحيث استمر النشاط الفدائي يقوم بمهامه إلى غاية آخر لحظة من وجود الاستعمار

الفرنسي بالجزائر. إن الانتصار الذي كان يتحدث عنه الجنرال ماسي (Massu) بمدينة الجزائر كان على الأوراق فقط، أما المعركة فقد استمرت على أرض الواقع، وسياسة القمع والتعذيب التي اتبعتها السلطات الفرنسية للقضاء على النشاط الفدائي بالمدينة كانت في أغلب الأحيان عاملا إيجابيا للثورة، بحيث دفعت الكثير من الجزائريين الذين كانوا مترددين في مواقفهم للالتحاق بالثورة، وأصبح الشعب الجزائري أكثر التفاف بالجبهة واحتضن الثورة بشكل كبير⁽⁶²⁾ ، وظهر بذلك خطأ السلطات الفرنسية في تحليلها للوضعية رغم أنها كانت تضم أكبر الجنرالات العسكرية.

ولعل هذا الذي جعل (جيل راي) يقر بأن القوات الفرنسية وإن انتصرت في (معركة الجزائر) إلا أنها خسرت الحرب التي تشنها في الجزائر⁽⁶³⁾ ، فهذه الحرب التي انتصر فيها الشعب الجزائري، والتعذيب الذي نادت به القوات الفرنسية، وامتدحه الجنرال ماسي، ومارسه ضباط ووافق عليه عدد كبير من رجال الألكليروس، في مراكز الفرز والسجون والثكنات⁽⁶⁴⁾ ، كل هذا جعل سيمون دي بوفوار، يتهم في كتابة جميلة بوباشة كل الفرنسيين ويصرح أن للجريمة شركاء آخرين، وليس القوات الفرنسية فقط هؤلاء الشركاء هم الفرنسيون جميعا، الذين لم يحركوا ساكنا أمام الجرائم التي ارتكبت في حق الشعب الجزائري⁽⁶⁵⁾ .

لقد تكلم القادة الفرنسيون قبيل احتلال الجزائر 1830 بأفواه عديدة وقالوا لشعبهم أنهم ينتقمون لشرفه المهان فأيد وتحمس⁽⁶⁶⁾ واليوم وإن كان هناك فرنسيون لا يزالون يدافعون عن أنفسهم وعن شرفهم، ولا يزالون يحسون بالشرف وبطهارة جيشهم وعظمة فرنسا فإننا ندعوهم لأن يقرؤوا -دون أن يحمروا خجلا- صفحات تاريخهم الأسود بالجزائر، فمن المؤكد أنهم يكتشفوا أن شرفهم قد ضاع بالجزائر من حيث أرادوا الانتقام له⁽⁶⁷⁾ .

خاتمة :

مهما يكن فإن الباحث في تاريخ الجزائر في عهد الاحتلال الفرنسي ولا سيما أثناء ثورة التحرير يجد نفسه مضطرا للحديث عن جرائم الاستعمار الفرنسي التي ارتكبتها في الجزائر وتخصيص لها فصل أو فصول مهما كان نوع وطبيعة البحث المراد البحث فيه. إذ لا يمكن أن نتحدث عن الاحتلال الفرنسي دون الحديث عن جرائمه ، ومحاولة تجاهل هذا الجانب يجعل الحديث أو الكتابة عن تاريخ الفرنسيين في الجزائر دون معنى ، إذ كل الكتب التي تناولت تاريخ

فرنسا في الجزائر إلا وتوقفت كثيرا عندا هذا الجانب وحتى تلك الكتب التي تناولت جوانب يفترض أنها بعيدة عن الإجرام وفيها الرقة والتحضر كانت همجية الاستعمار الفرنسي حاضرة وحقيقة ماثلة في سلوكيات والاستعمار الفرنسي فالأدب والتاريخ والفن كلها تناولت الجزائر والشعب الجزائري دون احترام لإنسانية الإنسان فانكشف بذلك زيف شعارات الإنسانية "الإخوة والمساواة" التي كانت تحملها فرنس وقد يكون ذلك هو الذي أبقى الحديث عن سياسة الاستعمار الفرنسي بالجزائر عبارة عن علامة استفهام (؟)، بحكم أن الفرنسيين لا يريدون الحديث عن تاريخ وجودهم بالجزائر الذي هو في مجمله تاريخ أسود، وهي الحقيقة التي لازالت تخيف مرتكبي هذه الجرائم لأنها تكشف عن حقيقة وجود الاستعمار الفرنسي بالجزائر، وإلا كيف نفسر الصمت المسدل على هذا الجانب؟، وقد عبر شيخ المؤرخين الجزائريين ابو القاسم سعد الله عن هذا الصمت متسائلا حول عدم وجود مقارنة بين غزو التتار لبغداد، وغزو الفرنسيين للجزائر؟.

الببليوغرافيا:

1 - Paris. éditions garnie finers. **Autopsie dune guerre : L'aurore.** Ferhat Abbas ،

p. 199.1980

2- 1961. Paris. **La guerre moderne.** Edition de la table ronde. Roger Trinquier -

3- العربي الزبيري، محمد العربي الزبيري، **الثورة الجزائرية في علمها الأول.** المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر

1984، ص132

4- ج، ت، و، الملتقى الوطني الثاني لتاريخ الثورة ج2 الكتاب، ص ص 85، 100

5- محمد العربي الزبيري، المرجع السابق، ص132

6 - L'écho d'Alger : 17-04-1955

7 - Yacefi Saadi, **la bataille d'Alger** , t1, édition la phenie Alger. 1986. p.176

8- Henri Alleg ، **La guerre d'Algérie. (T2 des promesses de paix a la guerre**

ouverte), édition messidon temps actuel. 1981. p. 442.

9 - Alistaire Horne ، la guerre d'algeriet., p117.

10 - edem. p.118.

11 - L'écho d'Alger le 17-03-1956 et le 20-03-1956.

12 - L'écho d'Alger le 28-05-1956 pp. 14 voir aussi H. Alleg : op. cit., p. 186.

13 - L'écho d'Alger. 03-09-1956.

14 - Idem 11-10-1956. p.1.

15 - Yecf Saadi : op. cit., p. 235.

16 - edem., p. 265

- 17 - Yves Couriere , **La guerre d'Algérie, t2 le temps des léopards**. Librairie athene fayar Paris. 1969. pp .429- 430.
- 18-. Salan. **Mémoires fin d'un empire, T3, L'Algérie française** , presses de la cite , Paris. 1972. p. 147.
- 19 - Saad Dahlab ; **pour l'indépendance de l'Algérie. Mission accomplie**. edition dahlab. Alger. 1990. p.58.
- 20 - Yves Couriere.le temps des léopards. p. 418.
- 21 - Alistaire Horne : op. cit., p.195.
- 22 - Yves Couriere : le temps des léopards. p. 454.
- 23 - Alistaire Home : op. cit., p.195.
- 24 - Henri Le mire , **Histoire de la guerre d'Algérie**. Edition Albin Michel. Paris. 1982 , p. 109.
- 25 - Salan. op. cit., p. 149 voir aussi A Home : op. cit., pp.173, 196.
- 26 - edem : p. 150.
- 27 - Mohamed Lebjaoui , **Bataille a'Alger ou bataille d'Algérie** .EditionGallimard imprimerie lochyenne. France. 1972. p. 15.
- 28 - edem. p. 35.
- 29 - edem p. 16.
- 30 - Yves Couriere : le temps des léopards. p. 461.
- 31 - Henri Le mire : op. cit., p.109.
- 32 - henri Alleg : op. cit., p. 463.
- 33 - L'écho d'Alger le 03-09-1956 p. 3 voir aussi H. Alleg : op. cit., p. 463.
- 34 - Mohamed Lebjaoui , op. cit., p. 117.
- 35 - Salan. op. cit., p. 68.
- 36- Trinquier op. cit., p. 53 ; voir aussi H. Alleg op. cit., p. 448.
- 37 - Khalfa Mameri Khalfa , **Abane Ramdhane, héros de la guerre d'Algérie** , édition. rahma. Alger. 1992. p. 137.
- 38 - henri Le mire : op. cit., p. 119.
- 39 - Lieuternnt colonel Bejeard ; **contre Gueilla**. imprimrie .Baconnier frères ; Alger, 1958, pp . 186, 117.
- 40 - Yves Couriere : Le temps des léopards. p. 529.

41- جون بول سارتر، **عارنا في الجزائر ترجمة** (عايدة وسهيل إدريس) دار الآداب بيروت (دون سنة الطبع)، ص48.

42- نفسه، ص68.

- 43- بيير هنري سيمون **ضد التعذيب في الجزائر**، ترجمة (بهيح شعبان) بيروت، ط1، جوان 1957، ص25.
- 44- نفسه، ص47.
- 45- ج، ت، و، بالمشاركة مع م، و، للمجتهدين، الملتقى الوطني الرابع لتاريخ الثورة، ص7.
- 46 - Hamid Keramane, la pacification livre noir de six année de guerre de Algérie, copyright, 1960, lacite éditeur lausanne, pp 20, 69.
- 47 - Idem, p. 69
- 48 - edem, p. 21.
- 49 - edem., p.21.
- 50 - H. Alleg : op. cit., p. 443.
- 51- ج، ب، سارتر، المرجع السابق، ص41.
- 52- نفس المرجع، ص56.
- 53- Mohamed. Lebjaoui : op. cit., p. 94.
- 54- ج، ت، و، التقرير الملتقى الجهوي، المقدم للملتقى، و، الرابع، الولاية الرابعة، ج1، ص102.
- 55- ج، ت، و، بالمشاركة مع م، و، للمجاهدين التقرير الملتقى الجهوي، المقدم، و، الرابع ج1، ص108.
- 56- A. Horne : op. cit., p. 201.
- 57- ج، ت، و، سارتر، المرجع السابق، ص6.
- 58- عبد القادر " مركز التعذيب وضحايا في الجزائر العاصمة " مجلة أول نوفمبر عدد 87، نوفمبر 1987، ص35.
- 59- Y. Couriere : le temps des léopards, p. 48.
- 60- Edward Beher : Dramatique d'Algérie tra par Michel Deutsch, Hardder et starghton, London, 1961, p.25.
- 61- Mohamed Teguia , **L'Algérie en guerre**. office des publications universitaire Alger, 1988 p, 241.
- 62- Salan : op. cit., p. 149 voir aussi Jules Roys , **j'acuse le général Massu**. édition de semil, Paris, 1972. p. 44.
- 63 - H. Alleg : op. cit., p. 494
- 64 - Roys : op. cit., p. 57.
- 65- سيمون دي بوفوار، جيزيلعلمي، المرجع السابق، ص6.
- 66- بيير هنري سمون، المرجع السابق، ص74.
- 67- أبو القاسم سعد الله، **الحركة الوطنية**، ج1، القسم الأول م، و، ك، الجزائر، 1992، ص16.